

نِداء الحَجِّ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى مَا أَوْلَى مِنْ نِعَمٍ وَأَسْدَى، إِلَهَ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَالسُّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، وَهُوَ عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى.

وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةً نَسْتَجَلِبُ بِهَا نِعَمَهُ، وَنَسْتَدْفِعُ بِهَا نِقَمَهُ، وَنَدْخِرُهَا عِنْدَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيَّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، نُجُومِ الْهُدَى، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: هُنَاكَ وَعَلَى ثَرَى مَكَّةَ، مَشْهَدٌ تَرَاهُ كُلَّ عَامٍ، أَقْوَامٌ قَدِمُوا مِنْ أَقَاصِي الْأَرْضِ وَمِنْ شَتَى نَوَاحِيهَا، بَدَلُوا لِبُلُوغِ الْحَجِّ كُلِّ سَبَبٍ، وَأَرْخَصُوا لِبُلُوغِ الْبَيْتِ كُلِّ مَالٍ.

تَرَاهُمْ وَقَدْ وَهَنَتْ عِظَامُهُمْ، وَتَقَدَّمَتْ أَعْمَارُهُمْ، وَاحْدَوْدَبَتْ ظُهُورُهُمْ، يَتَقَلَّبُونَ بَيْنَ الْمَشَاعِرِ الْمُقَدَّسَةِ، وَالْأَرْضِ - مِنَ الْفَرَحِ - لَا تَحْمِلُهُمْ. فَإِذَا عَايَنُوا الْكَعْبَةَ ذَرَفَتْ عَيْونُهُمْ، وَإِذَا أَدْرَكُوا الْحَجَّ فِي الْبِقَاعِ رَفَرَفَتْ مِنَ الْأَنْسِ نُفُوسُهُمْ. وَكَيْفَ لَا يَفْرَحُونَ وَقَدْ بَلَّغُوا مَا أَرَادُوا، وَحَقَّقُوا مَا أَمَّلُوا، وَأَتَوْا لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ الَّتِي كَانُوا مِنْ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِمْ يَتَشَوَّقُونَ إِلَيْهَا.

وَقَبْلَ أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا مِنَ الزَّمَنِ، وَفِي مِيقَاتِ ذِي الْحُلَيْفَةِ، وَالنَّبِيِّ ﷺ يَتَأَهَّبُ لِلرَّحِيلِ لِرِحْلَةِ الْحَجِّ الْخَالِدَةِ، وَالسَّفَرِ الَّذِي سَيَبْلُغُ مَعَهُ فِيهِمُ الْمَشَقَّةَ، حِينَهَا تَلِدُ أَسْمَاءُ زَوْجَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي الْمِيقَاتِ، ثُمَّ لَمْ يَرُدَّهَا ذَلِكَ عَنِ الْحَجِّ، فَتَأْخُذُ أَهْبَتَهَا وَتَرْتَحِلُ مَعَ الْجُمُوعِ وَهِيَ وَبَعْدُ فِي دَمِهَا.

تَذَكَّرْتُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَشْهَدَيْنِ أَقْوَامًا صَحِيحَةً أَبْدَانُهُمْ، قَوِيَّةً قَوَاهُمْ، لَكِنْ أَقْعَدَهُمُ الْكَسَلُ،
وَرَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ عَنِ الْحَجِّ.

إِذَا جَاءَ ذِكْرُ الشَّعِيرَةِ وَالْفَرِيضَةِ، تَعَلَّلُوا بِأَعْدَارٍ وَاهِيَةٍ مِنْ غَلَاءِ الْأَسْعَارِ وَبُعْدِ الدِّيَارِ، وَوَقَعُوا
فِي شَرِكِ التَّسْوِيفِ، مُعَلِّينَ أَنْفُسَهُمْ بِالْحَجِّ إِذَا تَيْسَّرَتِ الْأُمُورُ، وَتَنَاسُوا أَنَّ الْأَعْمَارَ لَيْسَتْ
بِأَيْدِيهِمْ، وَأَنَّ الصَّوَارِفَ تَزْدَادُ وَلَا تَنْقُصُ.

هِمَّتُهُمْ تَقْوَى وَعَزِيمَتُهُمْ تَنْشِطُ حِينَ تَكُونُ الرَّحْلَةُ إِلَى الصَّحَارِيِّ وَلَوْ بُعِدَتْ، وَإِلَى الدِّيَارِ
وَلَوْ نَأَتْ، فَإِذَا جَاءَ ذِكْرُ الْحَجِّ تَعَذَّرُوا وَتَلَكَأُوا، وَأَبْدَعُوا فِي التَّنْظِيرِ عَنِ الْمُعْوَقَاتِ، وَأَنَّ الْحَجَّ
لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَهَذَا وَاللَّهُ حَرَمَانٌ.

يَا مُوَفَّقُ: الْحَجُّ فَرِيضَةُ الدِّينِ وَرُكْنُ الْإِسْلَامِ، وَمِنْهُ يَعُودُ الْحَاجُّ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ نَقِيًّا مِنْ
الذُّنُوبِ إِذَا قَبِلَ، وَلَيْسَ لِلْحَجِّ إِذَا كَانَ مَبْرُورًا جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ.

فَلِأَجْلِ الْحَجِّ يَهُونُ الْبَدَلُ، فَهُوَ أَوْلَى مِنْ سَفَرَاتِ السِّيَاحَةِ وَكَمَالِيَّاتِ الْمُقْتَنِيَّاتِ، وَكُلُّ مَا
يُبْذَلُ فِيهِ يَرْجُو فِيهِ بِأَذَلِّ الْعَوَاضِ، فَهُوَ يَنْفِي الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ،
قَالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لِأَجْلِ كُلِّ هَذَا فَنِدَاءٌ نُوجِّهُهُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ لَمْ يُؤَدِّ فَرِيضَةَ الْحَجِّ أَنْ بَادِرَ إِنْ كُنْتَ قَادِرًا،
فَالْعَوَارِضُ تَعْرِضُ، وَالْعُمُرُ يَمْضِي، وَالْمَرْءُ إِنْ قَدَرَ الْيَوْمَ فَلَا يَدْرِي هَلْ يَقْدِرُ بَعْدَهُ أَمْ لَا.

وَعَبْنُ أَنْ يُسَافِرَ الْمَرْءُ لِكُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يُسَافِرُ لِلْحَجِّ، وَفِي الْخَبَرِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ
فَلْيَتَعَجَّلْ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرُضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ، وَتَعْرِضُ الْحَاجَّةُ».

هَذَا النَّدَاءُ يُوجَّهُ أَوَّلًا لِمَنْ لَمْ يَحُجَّ فَرَضَهُ، لِكَيْ يُكْمَلَ دِينَهُ، وَيُوجَّهُ ثَانِيًا لِمَنْ حَجَّ فَرَضَهُ كَذَلِكَ، وَقَدَرَ أَنْ يُكَرَّرَ هَذِهِ الرَّحْلَةَ، فَيَكُونَ مَعَ الْمُكَلِّبِينَ، فَالْخَيْرَاتُ تُنَالُ، وَالْكَرَامَةُ تَحْصُلُ، لِمَنْ أَدْرَكَ الْحَجَّ نَفْلًا وَفَرَضًا.

لَكِنَّهُ إِذَا كَانَ لَمْ يَتَيَسَّرَ لِلْمَرْءِ تَصْرِيحُ لِلْحَجِّ، وَسَيَّرَتْ عَلَى حَجِّهِ مُخَالَفَةٌ لِأَمْرِ، وَارْتِكَابُ لِمَحْظُورٍ، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ بِمَعْصِيَّتِهِ، وَحُجُّ النَّفْلِ لَا يَجْعَلُ الْمَرْءَ يَرْتَكِبُ الْمَحْظُورَ لِأَجْلِهِ، وَالوَاجِبُ عَلَى مَنْ يَلْتَمِسُ رِضَا اللَّهِ أَنْ يَمْتَثِلَ لِلْأَمْرِ، وَيُطِيعَ وَليِّ الْأَمْرِ، فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَرَّرَ لِمَصْلَحَةِ الْحَجَّاجِ.

نَعَمْ، رُبَّمَا تَأَقَّتِ النَّفْسُ لِلْحَجِّ، وَلَكِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ مَعَ كَثْرَةِ النَّاسِ وَتَيَسُّرِ سُبُلِ الْوُصُولِ الْيَوْمَ لِمَكَّةَ أَنْ يَحُجَّ الْجَمِيعُ، فَلَا مَا كُنِ الْمَشَاعِرِ طَاقَةٌ اسْتِيعَابِيَّةً، وَإِنَّ مِنَ الرَّفْقِ بِجَمِيعِ الْحَجَّاجِ، أَنْ لَا يَحُجَّ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ، لِيَسْتَقِيمَ الْأَمْرُ عَلَى مَا رُسِمَ لَهُ، وَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَوَلَّى وَليُّ الْأَمْرِ فِيهَا النَّظَرَ لِمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لَا لِأَفْرَادِ النَّاسِ.

وَمَنْ بَقِيَ مُرَاعِيًا ذَلِكَ بَرَعِمَ أَنْ نَفْسَهُ تَتَوَقَّعُ لِلْحَجِّ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُ صِدْقَ الْعَزْمِ، وَقُوَّةَ الرَّغْبَةِ، فَيُرْجَى لَهُ أَنْ يَنَالَ أَجْرَ حَجَّةٍ، وَهُوَ فِي بَلَدِهِ، وَفَضَلَ اللَّهُ وَاسِعٌ. وَفِي هَذَا قَالَ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «إِذَا أَمَكَّنَ تَرَكَ الْاسْتِكْثَارَ مِنَ الْحَجِّ لِقَصْدِ التَّوَسُّعِ عَلَى الْحَجَّاجِ وَتَخْفِيفِ الزَّحَامِ عَنْهُمْ، فَزَجُورٌ أَنْ يَكُونَ أَجْرُهُ فِي التَّرْكِ أَعْظَمَ مِنْ أَجْرِهِ فِي الْحَجِّ إِذَا كَانَ تَرَكَهُ لَهُ بِسَبَبِ هَذَا الْقَصْدِ الطَّيِّبِ».

يَا كِرَامُ: وَمِنْ رَحْمَةِ الرَّحِيمِ أَنْ قَالَ فِي الْحَجِّ بِذَاتِهِ: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وَالشَّرِيعَةُ تُقَرِّرُ هَذَا الْأَصْلَ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. فَرُبَّمَا سُبْحَانَهُ إِذَا شَقَّ التَّكْلِيفُ يَسْرَهُ، وَإِذَا ضَعُفَ الْمُكَلَّفُ عَنِ الْعِبَادَةِ عَذَرَهُ، وَمِنْ رَحْمَةِ الرَّحِيمِ أَنَّ الْأَجُورَ تُكْتَبُ لِمَنْ بَقِيَ مَعْدُورًا

وَكَاثَهُ بَيْنَ الْحَجِيجِ مُلَبِّيًّا، وَفِي الصَّحِيحِ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُنِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُتَقِيمًا صَاحِحًا»، وَ«إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رِجَالًا مَا سِرْتُمْ وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»، وَكَذَا كُلُّ عُدْرٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْعَمَلِ، فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ.

الخطبة الثانية

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

عِبَادَ اللَّهِ: وَرِحْلَةُ الْحَجِّ رِحْلَةُ عِبَادَةٍ، وَالْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْإِمْتِنَالِ، وَمِنَ الْإِمْتِنَالِ الْإِمْتِنَالُ لِتَعْلِيمَاتِ تَنْظِيمِ الْحَجِّ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْجَمِيعِ، وَرِفْقًا بِهِمْ، وَلرَّبَّمَا كَانَ فِي مُخَالَفَةِ ذَلِكَ تَعْرِضُ لِلنَّفْسِ وَرُبَّمَا الْحَجِيجُ مَعَهُ لِعَنْتِ وَرُبَّمَا الْهَلَكَةُ. فَلِكَيْ يَتَيَسَّرَ حُجُّكَ، امْتِنَلْ أَمْرَ رَبِّكَ أَوَّلًا فِي آدَائِهِ عَلَى السُّنَّةِ، ثُمَّ امْتِنَلِ التَّوْجِيهَاتِ لِكَيْ تَرْفُقَ بِنَفْسِكَ وَبِغَيْرِكَ.

وَفِي هَذَا الصَّدَدِ، فَمِمَّا يُذَكَّرُ فَيُشَكَّرُ مَا نَرَاهُ وَيَسْلَمُهُ كُلُّ قَاصِدٍ تِلْكَ الْبِقَاعِ، مِنْ جُهُودٍ مَشْكُورَةٍ، فِي تَهْيِئَةِ الْمَشَاعِرِ، وَفِي خِدْمَةِ الْحَجِيجِ، مِنْ جَمِيعِ الْأَصْعَدَةِ. وَذَلِكَ أَمْرٌ نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَدْعُو لِرُؤْيَا أَمْرِنَا عَلَى هَذَا الْجُهْدِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَهُمْ وَيُسَدِّدَهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ الْحَجِيجَ وَيَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ.

وَهَمْسَةٌ آخِرَةٌ لِكُلِّ مَنْ عَزَمَ عَلَى الْحَجِّ: أَنْ لَا تَنْسَى الْأَخْذَ بِالْأَسْبَابِ الصَّحِيَّةِ وَالْوَقَائِيَّةِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى النَّفْسِ، وَأَنْ تَجْتَنِبَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ التَّعَرُّضَ الْمُبَاشِرَ لِلشَّمْسِ رِفْقًا بِنَفْسِكَ.

وهُنَاكَ، وَفِي تِلْكَ الْمَشَاعِرِ وَالْبِقَاعِ، لِيَكُنْ رَائِدُ الْحَاجِّ السَّكِينَةَ وَالرَّفِيقَ، وَالتَّحَلِّيَ بِالصَّبْرِ
وَالْحِلْمِ، وَالخُلُقِ الْحَسَنِ، فَمَوَاطِنُ الْحَجِّ تَحْتَاجُ لِذَلِكَ، كَيْ لَا يَذْهَبَ الْأَجْرُ بِالْغِلْظَةِ
وَالخِصَامِ، وَلِذَا أَكَّدَ عَلَيْهَا نَبِيُّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ هُنَاكَ، فَكَّرَرَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ».

وَلِيَكُنْ لِسَانُكَ لَهْجًا بِالذِّكْرِ وَالْقُرْآنِ، وَوَقْتُكَ مَعْمُورًا بِالتَّعَبُّدِ لِلرَّحْمَنِ، وَالبُعْدِ عَنِ كُلِّ مَا
يُكَدِّرُ صَفْوَةَ حَجِّكَ، وَيَنْقُصُ أَجْرَكَ مِنَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ، فَهَذِهِ رِحْلَةُ الْعُمْرِ، وَلَعَلَّكَ تَعُودُ
مِنْهَا كَمَا وَلَدْتَكِ أُمُّكَ، فَمَنْ حَجَّ وَلَمْ يَرُفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ.